تُفّاح لبنان

تعدّدت انواع التفاح في الشرق وانفرد كل صقع فيه بمزية خاصة به من الطعم واللون والرائحة . ولكن لم تجتمع هذه المزايا الثلاث في صنف منه اجتماعها في تفاح لبنان . ولذلك طبّقت شهرته قديماً آفاق المشرق ، وتراءت سمعته الى بلاد المغرب والاندلس ، وكان له في كل منها شأن مستفيض في الادب والشعر والتجارة . وقد شهد ابن جبير في رحلته : «ان جبل لبنان من اخصب جبال الدنيا فيه انواع الفواكه»[1] . ولكن لا نعلم انه ذُكر بغير التفاح مما كان يُزدرع فيه من البقول والاعشاب والحبوب والازهار والاثمار . وقد بولغ في وصف زهاء الوان تفاحه وتعدّدها حتى ربما كان هو المقصود بقول احد المعجبين بهذا الثمر : «التفاح جمع الوان قوس قزح فلو انحل التفاح واسترق كان قوساً ولو استكثف القوس وانعقد كان تفاحاً»[2] ولعل هذا الوصف الغريب اجود ما قيل فيه من المدائح .

وقد بحثنا كثيراً لنعلم اين كانت منابت التفاح في لبنان حين كان يحمل الى الآفاق في عهد الخلفاء ، فذهبت اتعابنا ادراج الرياح . ولعلّ الارجح انه كان يغرس خصوصاً في ضواحي صيدا في الناحية المعروفة باقليم التفاح ، ثم انقطع منه ولم يبقَ الا اسمه دالاً على مكانه . ومن اسماء القرى المنسوبة الى التفاح مزرعة التفاح من قضاء زغرتا ، والتفاحة في المتن ، وتفاحتا من اعمال صيدا . واما اليوم فاول ما استُحدثت اغراسه في ميروبا ، وفاريا ، وحراجل ، ومزرعة كفرذبيان ، وبقعتوتا من قرى كسروان ؛ واقلّ منها في اهدن ، وتعنايل . وكانت كلها من الاجناس الغربية الدخيلة كما تدلّ عليها اسماؤها : المسكوبي ، والفرنجي ، والازميري ، وهو اصغرها . وربما بلغت اربع تفاحات من المسكوبي وزن رطل شامي . ثم انتشرت المغروسات في اكثر الجبل وقلّ

---

١) رحلته ، طبعة اوربة ، ٢٨٧

٢) مجلد في خزانة الجامعة الاميركية في بيروت فيه بعض نفحات الازهار وربيع الابرار ناقص ، وادرله الباب الثامن ، ص٥٥ .

ان يخلو منها اليوم مكان ومعظمها من الصنف الاميركي والانكليزي ورد عن طريق ايطالية واشهرها Renée de Canada, Starking, Golden, Sans Fareil, Winter etc. وليس بينها كلها ما يشابه التفاح المعروف قديماً باللبناني الذي انقطع من الجبل ولم تبقَ منه بقية تُعرف.

واهمّ مزايا تفاح لبنان في هذا الوقت عظم حبوبه، كما سبق، ورواء الوانه احياناً. واكبر منه كان فيما رووا تفاح بعض مدن البرتغال قديماً. وقد لا يخلو قولهم فيه غالباً من المبالغة التي قلّ ان يتبرأ منها كاتب عربي.

«حكى ابو يحيى البسع بن حزم في كتابه المسمى «المُغرب عن محاسن اهل المغرب»... وقد ذكر اشتبونة (Estepona) ومدينة سنترة (Cintra) ومدينة سنترين (Santaren)... ذكروا ان التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة اشبار واكثر قال ابو عبد الله البأكوري وكان ثقة: «اهديت عند المعتضد على الله محمد بن عباد ملك اشبيلية رجلًا من اهل سنترة اهدى اليه اربعاً من التفاح، ما تقل الحامل على رأسه غيرها دور كل واحدة خمسة اشبار وذكر الرجل ان المعتاد عندهم اقل من هذا فاذا ارادوا ان يجيء هذا البطم قطعوا حملها وابقوا منها عشرة او اقل وجعلوا تحتها دعامات من الخشب قال: وهذه البلاد فيها من القرى والضياع ما لا يحصى وبين اشتبونة واشبيلية مسيرة خمسة عشر يوماً للراكب المجدّ»[1]

وابلغ من ذلك زعمهم انه كان في مدينة شنترية «تفاح عجيب لا تحمل الدابة منه الا ثلاث حبّات»[2]

واشهر من وصف من الشعراء تفاح لبنان بجمال الخلقة ورواء الحمرة ابو الطيب المتنبي بقوله:

احبّ حمصاً الى الخناصرة وكل نفس تحبّ مهجاها
حيث التقى خدها وتفاح لبنا ن، وثغري على حميّاها[3]

وتبعه ابو الرقعمق فقال من قصيدة:

---

١) كتاب سمر السُمّار في ليالي الانوار في اوصاف ثمار سائر الاشجار، وهو الكتاب الحادي عشر من كتاب فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الالباب لشهاب الدين احمد بن يوسف بن احمد التيفاشي: خزانة اكسفورد M. S. Sale 70, fo, 12-13

٢) كتاب النكهة العطرية في حلى مدينة شنترية، من كتاب المُغرب في حلى المَغرب (رقم ١٠٣ م تاريخ) دار الكتب المصرية، ٨

٣) العرف الطيب في شروح ديوان ابي الطيب، ٥٨

ما زلت اجني بلحظي ورد وجنته واستنير على تفاح لبنان(١

ولمعلم الخليفة المستكفي بالله في صفة حديقة من ابيات :

ورأى الورد عسكرين من الصفـــــــــر فنادى فجاءه الجلنار
واستجاشت تفاح لبنان لما حميت من وطيسها الاوتار(٢

ولابي اسحق الخفاجي من شعراء الاندلس في غزله :

اغار لمدّيه على الورد كلما بدا ولمطفّيه على اغصن البانِ
وهبني اجني ورد خدّ بناظري أن ابن لي منه بتفاح لبنان (٣

ولعبد الله محمد بن احمد بن الحداد الوادي آشي من قصيدة :

واذهلها داعي النوى عن تنفّسٍ فحيّاً محيّاها بتفاح لبنان (٤

ووصف احدهم جارية فقال: « ثغر كالاقحوان وخد كشقائق النعمان ووجه كتفاح لبنان »(٥

ومن خصائص تفاح لبنان الذي اكسبته هذه الشهرة الطائرة اجتماع جمال لون الحمرة فيه الى حسن البياض المشوب بالصفرة ، وتضوّع مثل رائحة المسك منه . ولذلك قال احمد بن يعقوب فيما رواه القلقشندي : « اجود المسك في الرائحة والنظر ما كان تفاحياً تشبه رائحته رائحة التفاح اللبناني »(٦

ومن تغنّى في خمرياته بطيب هذه الرائحة المسكية ابو نواس فقال:

سلاف دنّ اذا ما الماء خالطها فاحت كما فاح تفاح بلبنان (٧

ولهذه الاوصاف كانت هدية التفاح عندهم من اجلّ ما يختاره الظراف للإلطاف تقرّباً من القلوب ، ولها عندهم موقع اثير لاجتماع طيب الرائحة فيها

---

١) يتيمة الدهر للثعالبي ، طبعة مصر ، ١ : ٢٦٤
٢) مروج الذهب للمسعودي ، بهامش نفح الطيب ، ٣ : ٤٤٣
٣) نفح الطيب للمقّري ٦ : ٢٢٢
٤) الذخيرة لابن بسام ٢ : ٢٢٢
٥) روضة القلوب ونزهة المحب والمحبوب لابي الفرج الشيرازي ، خزانة اكسفرد M. S. Sale 34
٦) صبح الاعشى ٣ : ١١٤
٧) ديوانه ، المطبوع سنة ١٨٩٨ ، ص ٢٤١

الى حسن الخلقة والنظر . ولذلك قال ابو الطيب محمد بن عبد الله بن احمد ابن يوسف :

ما اطيب التفاح في الهدايا عطية من اعظم العطايا
خديمة النسوان والصبايا ووصلة الناس الى البلايا(١

وكتب ابو الحسن جعفر بن الحاج من مدينة لورقة في اسبانية مع هدية تفاح :

بعثت بها لا آكل حمدا هدية ذي اصطناع واعتلاق
خدود احبّة وأعين صبّاً وعُدنَ على ارتماض واحتراق
فحمّر بعضها خجل التلاقي وصفّر بعضها وجل الفراق(٢

قال ابو الطيب الوشّا قرأت على تفاحة مكتوباً بماء الذهب :

انا حمراء دعوني لمحبّ وحبيب
وكلوا ذات بياض اكلها غير مريب(٣

وكثيراً ما كان التفاح يقوم مقام البطائق في المراسلات ويكتب عليه بالغالية من الطيب قال المسعودي :

« بينما كان خالد بن يزيد الكاتب عند الرشيد اقبلت وصيفة معها تفاحة عليها مكتوب بغالية :

سرورك ألهاك عن وعدي فصيّرت تفاحتي تذكرة

فاخذ الرشيد تفاحة وكتب عليها بغالية :

تفاضيت وعدي ولم أنسه فتفاحتي هذه معذرة

ثم قال : يا خالد قلْ في هذا شيئاً فقال :

تفاحة خرجت بالدر من فيها اشهى اليّ من الدنيا وما فيها
بيضاء من حمرة خُلّت بغالية كانما قطفت من خدّ مهديها(٤

---

١) كتاب الاوراق للصولي ، قسم اخبار الشعراء ، مصر ١٩٣٦ ، ص ٢٥٠
٢) كتاب المُغرب في حلى المَغرب (رقم ٥٥٣٠ تاريخ) دار الكتب المصرية ١٧ ، وقلائد العقيان ١٤٣
٣) الموشّى ١٦٧
٤) مروج الذهب ٨ : ١٦٧

ومما حفظ من الشعر المكتوب على التفاح بالمسك والغالية :

انا من تفاح لبنا ن الى الاحباب أهدى
من محب شفه الحسـ ـب الى المحبوب وجدا (١

ومن اغرب ما يُروى عنه ان اهل الشام كانوا في جملة مفاخرهم يعدون تفاح لبنان من عجائب قطرهم قالوا :

«يُحمل من لبنان وهو تفاح جبل عَذْي (اي يسقى من ماء السماء) لا طعم له ولا رائحة فاذا توسط نهر البليخ (نهر بالرقة من بلاد الجزيرة) فاحت رائحته »[٢] .

ولا عجب في ذلك لان التفاح كان يُبتَسر اي يقتطف قبل نضجه ليكون اقوى على تحمل مشقة السفر وطول الطريق فاذا بلغ الرقة ومسّه نسيم الحر كمل نضجه وطاب طعمه وانتشرت رائحته . ومن هذا الشاهد يستدلّ على كثرة ما كان يُستورد منه الى كل البلاد وهو ما كان يقتضي طبعاً تعدد مغروساته في انحاء لبنان وغيره من المدن والحدائق الشامية . ولعلّ بعض ما قيل فيه ونُسب اليه يجب ان يعود في الحقيقة الى تفاح دمشق لانه كان فيها من جملة انواع التفاح المعدودة نوع يقال له التفاح اللبناني[٣] ولم نجد وصفاً له في كل ما ذُكر عنه .

ويؤخذ من احد المراسيم السلطانية المنقوشة في احجار بعلبك ان التفاح اللبناني كان شائعاً معروفاً في مدينة هيكل الشمس . ولعله كان اوفر في حدائقها وبساتينها منه في دمشق ولذلك كان «جماعة من البلّاصين يطوفون في كل سنة على البساتين يطلبون من اهلها التفاح اللبناني ويقولون ان ذلك برسم حاضرة الشام». وهذا نصّ الكتابة المرقومة في حجر نُقل من مكانه ووضع

---

١) سمر السمّار المذكور آنفاً ، ص ٥

٢) كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني ، ١١٧

٣) محاسن الشام للبدري ٢٠١ ، والتذكرة للصفدي في ذيل ثمرات الاوراق في خزانة بريتش موزيوم Add. 7415, f° 222 .

منكساً في حائط الجامع الكبير الغربي من الخارج وهو من عهد السلطان الملك الظاهر برقوق:

« استجد مرسوم شريف ظاهري تاريخه ثامن عشر شهر الله المحرّم سنة سبع وتسعين وسبعمائة (١ إلى المقر العالي السيفي تنكز بغا نائب السلطنة الشريفة ببعلبك المحروسة مضمونه انه قد اتصل بمسامعنا الشريفة ان ببعلبك تتفق فيها كل سنة مظلمة لم تتصل في مسامعنا الشريفة الا في هذا الوقت وهو ان جماعة من البلاصين يطوفون في كل سنة على البساتين يطلبون من اهلها التفاح اللبناني ويقولون ان ذلك برسم حافرة الشام الشريفة... فليس لنا احتياج الى ذلك » (٢

واصل هذا التفاح كان مغروساً ايضاً في جنان حمص وهو ما يمكن ان يُستدل من قول ابي الطيب المتنبي في بيته المذكور آنفاً «حيث التقى خدّها وتفاح لبنان». ومن الحسران والشقاء ضياع هذا الصنف وفقدانه اليوم من لبنان والشام بعد ان تحادث به الركبان والقوافل في اكثر اقطار الشرق واستطار عرفه في اندية المغرب والاندلس

فسار به من لا يسير مشمّرًا وغنّى به من لا يغني مغرّدا

---

١) ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٣٩٤

٢) تاريخ بعلبك لمخايل موسى الوقف، طبعة ١٩٣٦، ص ١٧١